لغز المساس بالمقدَّس في كتابات آسيا جبار
ـ أو نقد هيمنة الخطاب الديني ـ
(من خلال رواية "بعيداً عن المدينة ")

أ/ نصيرة علاك

جامعة المدية

ملخَّص

تعدّ آسيا جبار الروائية الجزئرية الكاتبة باللغة الفرنسية من أكبر الروائيات والروائيِّين في المغرب العربي.

إنّ روايات آسيا جبار وقصصها تستكشف الحياة وتصوّر لحظاتها وأسرارها وغربتها ونماءها الاجتماعي، لكنّها بدون أن تنساق وراء مشاهد هي من نسج أحداث السيرة الذاتيّة، كما أنّها ترى أن الرواية يجب أن تتنزّه عن السياق التاريخي، وألاّ تعكس حوادث العهد الذي تكتب فيه لكن من غير أن تجحدها أو تنسحب من المجتمع الجزائري أو تنسلخ من الهوية الجزائرية وثقافتها. فكأنها تحتاج إلى البعد الزمني، الذي يتطلبه عمل المؤرخ لتقييم صادق للأحداث، إنّ التاريخ الشخصي والحميم متجذِّرٌ، مع الجرعة اللاّزمة من الفروق، في التاريخ الجماعي. ويختلف موقفها ككاتبة عن موقفها كجزائريّة، وعلى هذا الأساس فروايتها "**بعيداً عن المدينة** " (**Loin de Médine, 1991**) التي كتبتها في عزّ التقلّبات التي أخذت الجزائر تشهدها انطلاقاً من بدايات التسعنيات من القرن الماضي، عرفت ميلاً صريحاً إلى انتقاد الوضع المتدهور في بلادها ليس على مستوى الواقع المزري فحسب بل على مستوى الخطاب السياسي الذي تغلّف بخطاب ديني عارم. ولكنها تصدت أيضاً لمهمة إبراز دور المرأة الفاعل عبر العصور الإسلامية المنيرة منها والمظلمة. من هنا تنقسم مداخلتنا إلى المحاور الآتية:

- أدب آسيا جبار والمساس بالمقدّس
- أبعاد هيمنة الخطاب الديني في الجزائر
- نص "بعيدا عن المدينة" وجهاً لوجه مع النصوص التاريخية

مقدّمة

صدرت رواية "بعيدا عن المدينة" (Loin de Médine) لآسيا جبّار سنة 1991 كقراءة للوضع السياسي الذي عايشته الجزائر آنذاك، أي ما يصطلح على تسميته بالعشرية السوداء، حيث مثّل صعود التيار الإسلامي حدثاً غير مسبوق في تاريخ الجزائر الحديث.

تُسلِّطُ آسيا جبار في هذه الرواية الضّوءَ على الحياة أي حياة العباد بمختلف منزلاتهم في الأعوام الأولى من عهد الإسلام ـ الوليد الحَدَث ـ الذي بفضله وفي كنفه أخذ أولئك الناس يذوقون طعمَ الحياة الجديدة. لذا فهي روايةٌ حول المسلمين الأوائل. وهي في ذلك تعمد إلى المزج بين التاريخ والسّرد الرّوائي، وبين الواقِع والأحلام، وبين الصّمت والصّراخ... وتسافر بنا آسيا جبار عبر التاريخ الإسلامي والإنساني إلى غاية وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وتتناول موضوع النسوة عامّة والنساء المسلمات الأولى وبنات الإسلام. فتبيِّن كيف جعلن من الإسلام اللحمة التي وصلت بينهنّ وأقامت علاقة الأخوة.

ولكن تأخذ في تشخيص الموضع الذي تتدهور أحوالهن عادةً، وعوض أن تتأسّف على تلكم الأحوال المحيطة تنصرف إلى تشريحها وتمضي في دراستها في قالب سرديٍّ روائيٍّ لكلّ واحدة مْن شخوصها ـ لا ننسى أنّ آسيا جبار ذات تكوين صلب وعميق في التاريخ (حيث درّست هذه المادة بجامعة جزائريّة وأخرى مغربيّة بعدما حازت على شهادة أكاديميّة في مادّة التاريخ من المدرسة العليا للأساتذة بسيفر (Sèvres) بفرنسا. لذا تستكشِف أدوارَها التاريخيّة ..الخ. ولكي نفهم أبعاد هذا الاستكشاف نعمد إلى استنطاق بعض المقتبسات التي قرأنا فيها نزوعاً نحو الاضطلاع بالطابوهات واللاّمساس. ولكن بآدابٍ ولياقة وشخصيّة كثيراً ما تأخذها الغيرة على الإسلام كما على النساء اللّواتي احتظنّه على الرغم من التصعيد الرجولي الذي أقحمهنّ في صراعات وهميّة: صراعات مع الأزواج، صراعات مع الأخوات، صراعات مع المتعلّمات، وصراعات مع البنات ..ألخ. بيد أنّ وعلى الرّغم مِن ذلك، فالنصّ ـ كما سنرى ـ يشهد على أهميّة تواجد النساء في الدين الإسلامي والتّاريخ الإسلامي.

1. مشكلة تغميط الأسامي وتعميّتها في الثقافة الإسلاميّة

ورد في الرواية ـ وفي الفصل المعنوَن " المَصونة " (La préservée) ـ ذكرٌ لطفلة صغيرة تظهر بدون اسمٍ أو لا تنادى باسمها وهي في أزهى أيامها، أو لم تهتمّ الروائيّة بذكر اسمها. وهو ما يمكن تأويله على أنّها توحي بذلك إلى الاحتقار الذي أخذت تتلقّاه المرأة مِن المجتمع إلى درجة تجريدها من التسمية ما عدا أن يلمَّح إليها تلميحاً.

« مَن تكون هذه الصبيّة، التي تبدو في سنّها السابعة أو الثّامنة، المفعمة اليديْن بقطع اللعب الخشبية والقماشية البليّة وهي تمشي حافية الأرجل على أرضيّة الفناء، شعثاء (بقرط قرمزية وببشرة ناصعة البياض) مبتسمة العينين مع بريق أخضر في الحدقة، أجل، من هي هذه الطفيلة، بينما يسحبها أهله، بسماحة وعطف، من بَرٍّ مشمس إلى غرفة مظلمة » [1].

يتواصل السرد متناغماً مع حديث آخر جرى بين النبيّ محمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وصاحبه أبي بكر الصديق في موضوع بنت هذا الأخير التي يبدو أنّ النبيّ يريد أن يطلب يدها منه: فقد كان وحيٌ من جبريل عليه السلام. فبالتالي يمكن الآن أن نعرف اسم الصبيّة الذي هو « عائشة، عائشة بنت أبي بكر، عائشة الحياة » [2].

طبعاً لا تتوانى آسيا جبار في أن تعطي الكلمة لعائشة أصغر امرأة راوية للحديث النبوي الشريف. ولما كانت تهتمّ بوصف النساء اللواتي ارتقين أعلى سلّم الحياة الاجتماعية وأكثرهنّ تأثيراً في تلكم الحياة، استجابت لنداء التاريخ فشرعت تتصفّح فيه قارئةً الأحداث التي تكون تلك النساء قد صنعنها بجدارة. ولكن القراءة كانت بروح نقدية لكي تتعرّف على ما في كلِّ مدرجٍ من مدارج ذلك السلم من آيات الخزي الذي عانته النساء في تلك الحقبة من التاريخ القاسي عليهن. فعائشة بالنسبة لجبار لم تكن لتعرف المجد لولا الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي أدخلها عالمه وبالتالي أدخلها عالم الأحداث التي ستغيّر من مجرى ذلك التاريخ. هنا يعود السرد الروائي ليروي بفضل رواية " بعيداً عن المدينة " كيف أصبح من الممكن أن يتحوّل الشقاء وشظف العيش إلى

فبعيداً عن المدينة يعني نهاية الفتنة. الفتنة التي اندلعت وواجهتها عائشة وكانت وسط الجيش على الجمل، وكان أحد الخصوم الذين واجهتهم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وهو ينتصر. ولكن الحادثة تعيدنا إلى واقع الجزائر الذي أوشك في مطلع التسعينيات أن يزجّ بالجزائر في حرب أهليّة إذ أخذت تعمّه الفوضى والفتنة التي أصبح يتواجه فيها من انبثقوا من نفس الرحم.

ولكي تتحكّم في الحبكة ـ وهي صاحبة تكوين تاريخي ـ ترجع الروائية آسيا جبار إلى ثلاثة عمالق في السيرة النبوية: سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري.

2. مشكلة رفض الرجال لمقاومة النساء وقولهنّ « لا »

إنّ الرّجل يتعامل في رواية *آسيا جبّار* مُظهِراً القوّة والمروءة تجاه النساء وهو يُخفي ـ مع ذلك ـ آيات ضعفٍ حيث يشعر دائماً بالتّهديد عندما تجابهه المرأة بالصدّ عن أوامره وبالنفي وبقولها « لا » الصّريحة. «فكلمات فاطمة التي تقول " لا " تهدّد مقام الآباء والأزواج الذي

تجذّر في المجتمع منذ ما قبل الإسلام » (ص.66 من *بعيداً عن المدينة*). بل أكثر من ذلك فهو يدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة. ولكن فاطمة وريثة الرسول الشرعية لم تستنفِذ كلماتها في متاهات الصراعات مع الرجل. فحسب الروايات فقد قال الرسول « إنّ الأنبياء لا يورّثون مالاً ».

استحضرت آسيا جبّار في كتابة نصها الروائي كلا من سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري، إلاّ أنّ حضور هذا الأخير قد جاء طاغيا على خلاف سابقيه، حيث ورد ذكره 23 مرة، في حين أنّ الإشارة إلى غيره جاءت في شكل عابر وضمني في كثير من الأحيان، وكمثال عن ذلك فقد استحضرت الكاتبة رواية ابن سعد حول تولي أبي بكر للخلافة والخطاب الذي ألقاه على مسامع المسلمين.

إنّ استحضار الروائية لهذه النصوص التاريخية كان بالدرجة الأولى من أجل مساءلتها وخلق حوار معها، ومعارضتها في أحيان أخرى للكشف عن الحلقة الضائعة أو المغيّبة في خطاباتها، وهو ما يخلق نوعًا من خرق أفق الانتظار لدى القارئ الذي تعوّد على أن تكون الغاية من استحضار أي نص تقوية الحجّة وتأكيد وجهة نظر معينة، في حين أنّه يصادف هنا بنص يكتب على نقيض ما يتناص معه، نص يكتب في دائرة المُغيّب من تلك النصوص: إنّها كتابة على أثر كتابة.

ولعل آسيا جبار قد انتبهت إلى تقنية تخدم هذا التوجّه ألا وهي وضع أقوال المؤرخين بين مزدوجين، وهو ما يوحي بأنّها مجرد ناقلة لذلك الخطاب دون أن تتبنى أو توافق على ما يقول، بل على النقيض من ذلك نجدها تشكّك فيما رواه المؤرخ إلى حد بعيد يجعلها تلحق تلك الرواية بتحليل نقدي ورؤيا مغايرة.

إنّ نص "بعيدا عن المدينة" هو نص مسكون بهاجس الشك والاحتمال، نص يعارض كل ما هو ثابت في النصوص التاريخية ليعيد رسم واقع أكثر إشراقا فيما يخص دور المرأة وحضورها الفاعل عبر صفحات التاريخ الإسلامي. إنّه بكل بساطة نص يبحث في المسكوت عنه في التاريخ الإسلامي، ليتّخذ من النقطة التي يتوقف عندها المؤرخ حافزًا للبدء في كتابة نص موازٍ يعيد تأثيث ذلك التاريخ مستعيناً بعنصر الخيال.

تبدي آسيا جبار تحفُّظها بشأن ما يقوله المؤرخ بطرح جملة من الأسئلة التي تفتح المجال لتصور احتمالات أخرى أكثر واقعية، ذلك أنّ الصورة التي يعطيها المؤرخ تبقى باهتة وناقصة بفعل تحكّم المنظور (النسق) الذكوري في توجيه ما يورده من أخبار، وتبقى وسيلتها في ذلك هي فتح المجال أمام التخييل لملء تلك الثغرات وإضاءة البؤر المعتمة في تلك النصوص، فلو عدنا إلى قصة الملكة اليمنية حسب رواية الطبري لوجدنا أنه يضعنا في الجو العام الذي برزت فيه

ردّة "أسود" وكيف أنّه استطاع أن يقضي على "شهر" (حاكم اليمن) ويتزوج زوجته بحكم أنّها غنيمة من غنائم الحرب، ليعزو فيما بعد إلى جيش المسلمين بقيادة "فيروز" فضل القضاء على هذا الدعي. ويورد الطبري في الختام وقع هذا النصر على نفسية الرسول عليه الصلاة والسلام حيث يقول: "أتى الخبر النبي صلى اللّه عليه وسلم من السماء الليلة التي قُتِل فيها العنسي ليُبشِّرنا، فقال قُتِل العنسي البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين، قيل: ومن هو؟ قال: فيروز. فاز فيروز".

يلاحظ من خلال هذه القصة الحضور الطاغي للعنصر الذكوري الذي برز بوصفه الطرف الفاعل الوحيد في تحريك مجريات الأحداث، في حين أنّ صورة الملكة اليمنية كانت باهتة، سلبية، عاجزة عن تغيير مصيرها، إذ لم تتعدى كونها غنيمة من الغنائم التي يستأثر بها المنتصر. وانطلاقاً من هذا الطرح التاريخي شرعت آسيا جبار في فتح مجال الشك والتساؤل حول ما بقي غامضاً .وتتساءل أولاً عن سبب زواج أسود من الملكة اليمنية في الوقت الذي كان بإمكانه أخذها كسبيَّة (ص 20)، فتطرح جملة من الاحتمالات دون أن تتبنى موقفا محدداً:

"لماذا تزوجها؟ هل فقط لكونها جزءا من الغنيمة، هو ذلك البدوي الذي لا يزال مغطى بالغبار، هي الأكثر شباباً وجمالاً بين النساء، فريسة مدهشة؟ لكن كان بإمكانه أخذها دون أن يتزوجها، ربّما لم تبد أي مقاومة، برؤية محسوبة العواقب أو بفضول، أو ربّما كما افترض الطبري "بسبب الخوف" الخوف من أن يغادرها سريعاً.

تهتدي آسيا جبار إلى تصورٍ يبدو أكثر واقعية وهو أنّ الملكة اليمنية أرادت المجد، بظنها أن أسود رسول حقيقي "أسود "الأسود" منتصر وزيادة على ذلك يدّعي النبوة برز أمامها، لقبه إضافة إلى انتصاراته جمّلت صورته في نظر الأرملة التي جفّت دموعها سريعاً"

ثم، واعتماداً على عنصر الخيال، تعيد آسيا جبار تأثيث تفاصيل هذه القصة "الخيال يكون بتصور..." (ص 20)، فتُحدث بذلك قلباً في ما يخص الرؤيا أو المنظور، من أجل إعادة تفسير وتأويل المعطى التاريخي، كما يشرح جمال الشيباني: "إنّها تدعونا للدخول في إطار التخييلي، هذا الإطار نفسه الذي سمح للروائية بوضع المرأة في موضع القوة، في الواقع منذ اللحظة التي نرفض فيها أن تكون هذه المرأة قد خضعت عن خوف".

شيئاً فشيئاً تبتعد آسيا جبار عن أصداء المعطى التاريخي وتغوص في عالم من الخيال كما شاءت له أن يكون. وسعيا منها لتفسير موقف الملكة اليمنية والمتمثل في إقدامها على التآمر ضد الدعي، تهتدي إلى مبرر يبدو أكثر إقناعاً وذلك برده إلى كونها قد جُرِحت في

كبريائها وطموحها: "لقد تزوّجْته لكونه نبياً مثل محمد ... شاهدته كل يوم، أشعر بالحقد اتجاهه". وتحت وطأة الخيبة ثارت الملكة ساعية وراء الثأر لأنوثتها المجروحة من قبل بدوي أسود وثني "دجّال"، فحاكت بذلك تفاصيل المؤامرة بمهارة أنثى جُرِحت في الصميم.

لقد دفع هذا التصور آسيا جبار لكي تتناص مع التوراة في قصة جوديث، المرأة اليهودية التي أنقذت قومها من الهلاك الحتمي حين أقدمت على قتل حاكم بابل. لكنها سرعان ما تهتدي إلى الفارق النوعي بينهما، إذ تضيف قائلة" :الوقت لم يحن بعد للمخيلة العربية للرفع من مصائر شخصيات مثل هذه أو لاختراعها، على الأقل في تلك النصوص الأولى"

لقد فضّل الطبري أن يعزو سبب هزيمة "أسود" إلى كونه قد لُعن من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام، وبسبب وقوعه تحت تأثير النشوة (الخمر)، فمحا بذلك كل تفصيل عن "الملكة اليمنية" لِيلُف الغموض مصيرها فتختفي في دائرة النسيان، في حين أنّ آسيا جبار تعطي الصدارة والفاعلية للعنصر النسوي حين تجعله المُحرِّك الأساسي للوقائع لا مجرد ديكور يتأثث به مسرح الأحداث، وسيلتها في ذلك الاستعانة بالخيال الذي يسمح لها بسحب تلك النساء من الظل وإحلالهن تحت الضوء الذي حسب الروائية لم يغادرنه مطلقاَ.

كمثال آخر عن هيمنة النسق الذكوري في توجيه الخطاب التاريخي تُسلِّط آسيا جبار الضوء على قصة سجاح، المرأة التي ادّعت النبوة ومُسيلمة الكذّاب .حسب النص التاريخي للطبري تبرز رِدّة سجاح في فترة عرفت ارتداد الكثير من القبائل العربية بسبب رفضها لدفع الزكاة في عهد الخليفة أبي بكر، فادّعت النبوة واستطاعت في وقت وجيز أن تجمع بطون العرب حولها من تغلب وربيعة. كما وادعتها قبائل أخرى كتميم، فنتج عن ذلك تحالفها مع مالك بن نويرة لمقاتلة أبي بكر، وبعد أن انحلّ حلفها اهتدت إلى غزو اليمامة، فأنبأها قومها بما يدعيه مسيلمة، وعن ذلك يقول الطبري:

"ولّما رجع الهُذيل وعقة إليها واجتمع رؤساء أهل الجزيرة قالوا لها: ما تأمرينا؟ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يزيدوننا على أن نجوز في أرضهم، وقد عاهدنا هؤلاء القوم. فقالت: اليمامة، فقالوا: إنّ شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلُظ أمر مُسيلمة، فقالت: "عليكم باليمامة ودُفّوا دفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرّامة لا يلحقكم بعدها ملامة". فلمّا بلغ هذا النبأ مسيلمة هابها فأهدى لها ثمّ أرسل لها يستأمِنها على نفسه حتّى يأتيها"

يتّفق الدّعِيان على الزواج الذي يستمر مدّة ثلاث ليالٍ، لينصرِف بعد ذلك كل إلى شؤونه، فكان مهرها آنذاك أن أسقط مُسيلمة عن قومها صلاة العشاء والفجر. ويُنهي

الطبري قصتها دون ذكر تفاصيل واضحة عن مقاومتها أو مصيرها "لتبقى سجاح في بني تغلب حتّى نقلهم معاوية عام الجماعة في زمانه [...] وجاءت معهم وحسُن إسلامها"

لقد بدت شخصية سجاح حسب رواية الطبري شخصية ضبابية التكوين، حيث ورغم إقراره بالقوة التي مارستها على أتباعها بفعل موهبتها الفذّة المتمثلة في سحر الكلمة والإتيان ببديع الكلام، إلاّ أنّه لم يرسم لنا تلك الشخصية بشكل واضح ودقيق يمكّننا من تصور الخطر الذي مارسته على الإسلام، فنحن مثلاً لا نعرف عمرها ولا شكلها الخارجي ولا تفاصيل حياتها قبل وبعد هزيمتها. ليس هذا فحسب، بل يضيف الطبري ما يدحض به ما يمكن أن نتصوره عن كونها حالة استثنائية بين بنات جنسها حين يُصوِّرها امرأة افتتنت بجمال مسيلمة الذي كان، حسب تعبير الطبري، شاباً بهي الطلعة.

كيف لامرأة بسطوتها وسحرها الذي خلب ألباب العرب أن ينتهي بها المسار خاضعة لفتنة رجل شاب؟ يبدو هذا الطرح منذ الوهلة الأولى سطحياً يسهُل دحضه بالنظر إلى ما سبق ذكره من تفاصيل، الأمر الذي يثير تساؤلات عدّة حول سبب انعدام الحِس النقدي لدى الطبري. إذا أردنا أن نتعمّق هذا الطرح بقراءته من خلال أبعاد أخرى، يمكننا أن نهتدي ودون عناء إلى أنّ الطبري قد وجد أنّ ذلك التّصور ينسجم مع الذهنيّة السائدة، وهي كون المرأة ذلك الكائن الضعيف والعاطفي الذي يتأثّر بسرعة أمام الجمال، وبالتالي فسجاح، ورغم ما قيل عنها، لا تمثّل في آخر المطاف سوى نموذجا للمرأة التي مهما بلغت أمجادها تسقط أمام سطوة الرجل.

الهوامش:

[1] Assia Djebar, Loin de Médine, Ed. Albin Michel, Paris, 1991, p.265.
[2] Idem, p.267.